أثر الدلالة الفنية في تعليمية التراكيب النحوية

- مقاربة في ضوء المنهج التداوليّ -

مراد قفي*

جامعة محمد بوضياف، المسيلة (الجزائر)، gofimorad08@yahoo.fr

ملخص:

تتناول المداخلة مستوى الدلالة الفنية التي تكون وفقا لمظاهر أسلوبية تنزاح إليها الدلالة الأصلية الضرورية بوصفها مُعطى أساسًا في عملية التواصل، فما يُجيزه نظام اللغة يندرج ضمن مهارات المتكلمين وأسلوبيّاتهم المتباينة، فالمتعلم بوصفه متكلما يحقق كفاءة نحوية ما إذا أدرك وتذوق الظاهرة الأسلوبية، فيتحول باحثا عن النمط المثالي الذي انزاحت منه الظاهرة.

كلمات مفتاحية: *الدلالة الفنية، تعليمية، التراكيب النحوية.*

المقدمة:

تطرح اليوم في مختلف الأطوار التعليمية مشكلة عزوف المتعلمين عن استيعاب مضامين نحو العربية، ممّا أدى إلى ذلك المردود الهزيل لتعليمية تلك المضامين ومقاربة الكفاءات إزاءها، فهبّ الدارسون محاولين إصلاح ما بدا فاسدا من متن النحو العربي، أو مكتفين بما بدا لهم فيه غنًى عما سواه، ويسدّ حاجات المتعلم الكفائية، وتراءى لهم في هذا منهج نفعيّ يحمل على عاتقه إشراك المتعلم وجعله محورا مركزيا تدور حوله العملية التعليمية برمّتها، فإن المنهج ذا يراهن على عنصر الإثارة إثارة المتعلم فكريا وفنيا لتنمية كفاءته الفكرية والذوقية فيمكنه مواكبة ما يصادفه من مواقف تعبيرية مختلفة.

تتناول المداخلة مستوى الدلالة الفنية التي تكون وفقا لمظاهر أسلوبية تنزاح إليها الدلالة الأصلية الضرورية بوصفها مُعطى أساسًا في عملية التواصل، فما يُجيزه نظام اللغة يندرج ضمن مهارات المتكلمين وأسلوبيّاتهم المتباينة، فالمتعلم بوصفه متكلما يحقق كفاءة

* المؤلف المرسل: gofimorad08@yahoo.fr

نحوية ما إذا أدرك وتذوق الظاهرة الأسلوبية، فيتحول باحثا عن النمط المثالي الذي انزاحت منه الظاهرة، والذي هو القاعدة .

إنّ في مثل هذا البحث محاولة لرصد نقاط اللقاء بين الأساس التركيبي للغة والمقدرة الفردية الاختيارية للمتكلم في التعبير عن المعنى وضوحًا وجمالا، ولعلّ في هذا مُعينا لِتحسُّس منهج يُقرِّب للمتعلمين معارف النحو بشيء من جمالية المعنى، وبذلك تُوصَل قواعد التركيب المجرّدة بالمعاني الفنية المستفادة. عسى مناهج تعليميّة اللغة العربية تفيد من هذه المواءمات في تدريس تراكيب نحو العربية، خاصة إذا ما علمنا أن سيكولوجيا المتعلم اليوم أضحت تمجُّ القاعدة الضاغطة، وتستهجن قوانين الإباحة وعدمها، والأمثلة المصنوعة والإعراب التقديري، وتنبذ تلك الصورة النمطية من مرفوعات ومنصوبات ومجرورات.

وإنّ الكفاءة النحوية في تعليمية العربية لن تتحقق في فراغ عن الكفاءة الأدبية والفنية، من حيث مقاربتها بالنصوص الأدبية المقررة، ولن تتحقق تلك الكفاءة إلا باستحضار مجموع مختلف السياقات الانفعالية والوجدانية والاجتماعية القابعة في أدبية النص وفنيته وحضوره السياقيّ والتداولي.

مدخل: التداولية منهجا وإجراءً

التداولية[*] علم جديد للتواصل الإنساني، يدرس الظواهر اللغوية في مجال الاستعمال، ويُعرّف بالقدرات الإنسانية للتواصل اللغوي، وقد نالت لدى كثير من المهتمِّين اسم «علم الاستعمال اللغوي». ومن جهة أخرى "تشير التداولية إلى مُكوِّن من مكوِّنات اللغة إلى جانب المكوّنَين التركيبي والدلالي، ففي المكوّن التركيبي تدرج العلاقات التي تربط الدوال اللغوية بعضها ببعض في حين أنّ المكون الدلالي يصور العلاقات التي تصل هذه الدوال بالواقع وهو مرجع الدلالات(المعاني) اللغوية، أمّا المكوِّن التداولي فتدرج فيه العلاقات التي تربط تلك الدوال بمستعمليها، وبظروف استعمالها، وآثار هذه الاستعمالات على البنى اللغوية."[1]

وليس المقام متّسِعًا للإحاطة بالاتّجاه التداولي في جهازه المفاهيمي وتطوّره في الدرس اللساني الحديث، إنّما سيقتصر الحديث عن التداولية بما له علاقة مباشرة بالإبداع اللغوي

وبما من شأنه بلورة استراتيجية تحقيق الكفاءة النحوية في العملية التعليمية، ويُمكن إنزال المستوى التداولي- قياسا إلى المستويات السيميائية العامة- هذه المنزلة:

- علاقة اللغة باللغة : «علم التركيب / Syntax »
- علاقة اللغة بالواقع: «علم الدّلالة / Semantics»
- علاقة اللغة بمستعمليها: «التداول / Pragmatics»

ثمّ إنه ما يكاد يتوّحد في عرف التداوليّين أنّ الكفاية العامّة ذات شقين؛ الكفاءة اللغوية بمعنى القوانين الصّورية التي تنتظم بها اللغة في عقل البشر، والكفاءة البلاغية (الإفصاحية) التي تتضمن الآليات التي تتّحكم في طريقة اشتغال الإبداعية اللغوية على مستوى الكلام، ومن هذا الأساس يظهر لنا خَطر هذه الخلفية المسبقة في الحياة اليومية التخاطبية كونُها تمثل صلب التخاطب، إذ إنّ من أسباب سوء الفهم وإخفاق الكلام- بخاصّة لدى مُتعلمي اللغة- ما يكون مرجعها ذلكم الافتقار إلى مجموع الافتراضات المسبقة الضرورية للتبليغ، ولابدّ من التنويه- في هذا الصدد- بالقيمة النفسية للمخاطبات وتفعيلها في النسيج النصِّي لاستحضار سلسلة الافتراضات في مظانّها التداولية.

وإنّ اللغة -عند (باختين M. Bakhtine) [*] - ليست شيئا ثابتا ومجرّدا نَحْتكم في دراسته إلى نسق من القواعد القارّة، بل هي نتاج الحياة الاجتماعية، أو بالأحرى إنّها صيرورة من الديناميّة المسايرة لديناميّة الحياة الاجتماعية وتطوّرها [(2)]؛ إذ إنّ كل مخاطَبة توجد مرتبطة بنمط من أنماط التواصل الاجتماعي الحيّ، الأمر الذي يسمح ببيان الكيف الذي يتحقق من خلاله تطوّر الصيغ اللغوية وتغيّرها، وفقا لسلّمات العلاقات القائمة بين المخاطَبات والمحيط الاجتماعي عامّة، ويُمكن تلخيص هذه العلاقات في:

- التنظيم الاقتصادي للمجتمع.
- علاقات التواصل الاجتماعي.

- التفاعل اللغوي.
- الملفوظات.
- الصيغ النحوية للغة.

فإضافة إلى السياق بمعناه العامّ، تُعوّل تداوليات الخطاب على وحدات التواصل بوصفها كلا دلاليا، تنبني وتنجز في سياق تفاعل لغوي محددّ، تولده علاقاتُ التواصل الاجتماعي المحدّدة، كما أنّ كلّ نمط من أنماط التواصل المذكورة أعلاه ينظم على نحو نوعيٍّ الصيغة النحوية والأسلوبية للمخاطبة، ويُسهم في بنائها وإنهائها بصورة تسمح بمعرفة نوعها اليومي، أو العلمي، أو الأدبي الذي تنتسب إليه.

وقد قامت التداولية- في مستوى تحليل المخاطبات- بالتركيز على السلوك الاجتماعي المرتبط ارتباطا وثيقا بالمقام(*)، الذي لا تتحدّد من دونه أيّة وظيفة تواصلية، وهذا من خلال إنجاز أربعة أفعال في الوقت نفسه:

- فعل القول.
- فعل الإسناد.
- فعل الإنشاء.
- فعل التأثير.

إنّ اشتغال اللسانيات بالجملة مجالا للدرس والتحليل يُعدّ مرحلة هامّة لتأسيس قاعدة خلفية لاشتغال الدارسين بالخطاب، وما يستدعيه من تطوير في منهج التناول وتوسيع دائرة التحليل لتشمل العناصر غير اللغوية والأكثر ملموسية، ولعلّ الاتجاه الوظفي بمرجعيته التواصلية قد أسهم في تمهيد السبيل للوصول بالدرس اللغوي إلى حقيقة الظاهرة اللغوية، وما من شكّ في أنّ أفكار الاتجاه الوظفي كانت بذورا صالحة للطرح التداوليّ في صيغته الختامية، مُعالجا ومُفسِّرا للخطاب اللغوي.

والمتأمّل في التراث اللغوي العربي، البلاغي منه بخاصة، يجده يزخر بالتفاتات ذكية إلى المكوّن التداولي بمختلف مظاهره، وآليات اشتغاله ضمن دراسة المعاني والأساليب، والأغراض والمقاصد، ومن خلال بحثهم في الإسناد وعلاقته بالظواهر الأسلوبية، مثل مبدأ "الإفادة" وعلاقته بظواهر التعيين والإثبات والنفي، والتقديم والتأخير، ومبدأ "الغرض والقصد"، ودرس الأفعال الكلامية في الأساليب النحوية كالتأكيد والقسَم والإغراء والتحذير والدعاء والاستغاثة والندبة ...

1/ما بين علمَي النحو والبلاغة العربيَيْن

تُطرح في أكثر من سياق مسألة ما يُسمى علومَ العربية، وحدودِ ارتباطها، وإفادة بعضها من بعض. والثابت في المسألة أن مدار هذه العلوم جميعا كان القرآن الكريم من جهة حفظه والحفاظ عليه، ومن جهة السعي إلى فقهه واستكناه أسراره والبحث في مكامن الإعجاز الذي تميّز به.

ولعلّ من أوائل هذه العلوم ظهورا النحو، الذي راح ينمو إلى أن بلغ ما بلغه في كتاب سيبويه (المتوفى 180هـ) من ضبط إلى حدِّ التنظير، والكتاب نفسُه لم يكن نحوا خالصا، "بل يشتمل على مختلف علوم العربية... وحديث عن القراءات، والنحو والصرف والبلاغة، ومخارج الحروف."[3]

إنّ من اللغويين المحدَثين من رأى أنه آنّ الأوان لإقامة درس لغوي متكامل فتدرجَ في دراسة النحو مباحث البلاغة العربية، حتى تسدّ ما رأوه نقطة ضعف في النحو العربي (كشف الروابط بين الشكل والمعنى) وتعميم هذا المنهج على المستوى الدراسي، ومن منطلقات دعاة إحياء النحو أنّ تدريس النحو صار يرتبط أكثر بطابع الصناعة، "حتى إنّه يُعرف أحيانا بصناعة النحو، ثمّ خلوُّه من الارتباط بالمضمون ممّا جعله يبدو في نظرهم جسدا بلا روح."[4]

وعندما أقرّ د.تمام حسان بصعوبة عملية إدراج علم المعاني ضمن تدريس النحو كان يعي أنّ المزج المباشر غير ميسور، والتنفيذ ليس سهلا، لذلك يبدو أنّ الإفادة من مباحث عِلمَي البلاغة والنحو لا بدّ أن تقوم على تصوّر شامل للظاهرة اللغوية، بَدْءا من الكلمة بوصفها

مدخلا معجميّا معرفيّا، وانتهاءً إلى النّصوص، وبالاقتراب أكثر من فضاءات الدّلالة، والسعي إلى الإمساك بأطرافها.

ويتساءل أحد المشتغلين بهذه القضية؛ ما الدافع إلى الشقاق بين النحوي والبلاغي؟ "إنّ الصلة في أصلها حميمية، وكلاهما -النحوي والبلاغي- يتعاملان مع الأداء اللغوي. لقد حدث الشقاق ... حينما غَفل النحويون عن دراسة الظواهر النحوية متصلة بالتركيب اللغوي... ولم ينتهوا إلى البناء وقيمته النحوية والفنية."[5]

أ/ أسلوبيّة النَّظم و وظيفة النحو الشِّعرية

في فترة متأخرة من تاريخ الدرس اللغوي العربي جاء عبد القاهر الجرجاني (المتوفى471هـ)، فوجد عامة المحدِّثين والفقهاء زهدوا في النحو، فدعا إلى أهميته البالغة في معرفة إعجاز القران الكريم، واستكناه أسرار هذا الإعجاز، وبذلك قد أعطى الجرجاني النحوَ بُعدا لا يُستهان به في الدرس اللغوي؛ إذْ سلك به طريقا يجمع بين القانون الذي لا يقبل النقض، والدلالة الإضافية المطويّة في التراكيب اللغوية "وبات واضحًا لكل ذي عين أنّ التركيب النحوي يطلق ولا يراد معناه الأصلي، وهذا غيرُ مراد في البحث البلاغي، وإنّما المراد ما يدل عليه التركيب ضمن المعاني الثانية، وهذا هو بَحثُ البلاغيِّين وموضوع فنِّهم."[6]

ويُساوي عبد القاهر الجرجاني بين الأسلوب، والنّظم، والتأليف، وحُسْنُ الأوّل مرهون بحُسن الثاني، والصورة الفنية المجتمعة من اللفظ والمعنى أشبه بعملية الصياغة أو بالوشي الحرفيَيْن، فيقول معرِّفا بالنّظم: "واَعلم أنْ ليس النَّظم إلا أنْ تضع كلامَك الوضع الذي يقتضيه علمُ النحو وتعملَ على قوانينه وأصوله، وتعرفَ مناهجه التي نُهجت، فلا تزيغ عنها وتحفظَ الرّسوم التي رُسمت لك فلا تُخلَّ بشيء منها، وذلك أنَّا لا نعلم شيئا يبتغيه النّاظم بنظمه، غيرَ أنْ ينظر في وجوه كلّ باب وفُروقه."[7]

نستخلص من هذا النص مفاهيم أساسية لتصوّر الجرجاني للجملة، فالنحو أساس العبارة اللغوية بوصفه هيكلا أساسيا (البنية المركزية الثابتة)، ومعنى العبارة هو ما يسعى إليه المتكلم من هذه العبارة، "وعبد القاهر يرى أنّ صُلب البلاغة هو النحو."[8] ومن ثَمّة يذهب إلى

أنّ الأسلوب ضَربٌ من النّظم وطريقة فيه، ويجب أنْ يتوخّى فيه المبدع اللفظ لمقتضى التفرّد الذاتي، وأنّ النحو قاعدة كلّ نَظم، لا باعتباره أداة أسلوب فحسب، وإنّما جعَل منه مُستفتَحا لما استُغلق من المعنى.

ثُمّ إنّ مفهوم الإعراب لدى الجرجاني لا ينتهي فيه إلى مفهوم الموقع أو المحلّ من الجملة أو نسبته من الجملة من سابقه، أو لاحقه رفعا أو نصبا أو جرًّا، بل يتعداه إلى المفهوم الدلاليّ الذي تقتضيه حصافة المخاطَب الذي قويَت ملكته البلاغية واستحصفت، وما من شك في أنّ النظم- بهذه الصورة- يستدعي حضورا عقليا و استعمالا منطقيا للغة، فلا يقوم الإبداع إلاّ على جملة من المراحل الواعية ينتظمها الأسلوب الفني بدْءا من الذهن وتصوراته للمعنى، ووُصولا وانتهاءً إلى التمثيل المنطوق.

يقول أحد الدارسين المحدَثين الذين أفادوا من جهود عبد القاهر الجرجاني في دراسة الجملة العربية: "وأما أخطرُ شيء تحدّث فيه عبد القاهر على الإطلاق فلم يكن النظم ولا البناء ولا الترتيب وإنّما التعليقُ، وقد صار به إنشاء العلاقات بين المعاني النحوية بواسطة ما يسمى بالقرائن اللفظية والمعنوية والحالية."[9] فالتّعليق هو ذلك النسق الذي تتألف فيه السلسلة الكلامية، وتتآلف فيه العناصر والوحدات المعجمية، لتشكّل مُجتمعة ومتناسقة المعنى المراد والغاية المَرومة، "فمعلومٌ أنْ ليس النظم سوى تعليق الكلم ببعضها البعض، وجعل بعضها بسبب من بعض، والكلام ثلاث: اسم وفعل وحرف" [10]

فقد لخّص الجرجاني أبواب النحو كُلّها من خلال نظره في تعلّق الاسم بالفعل، وتعلّق الاسم بالاسم، وتعلّق الحرف بهما وفقا لمتطلبات السياق اللغوي، والصور التي يرمي إلى بيانها المتكلم إفصاحا عن غايته ومقصده، ومدار عمليات التعليق تلك ركنان أساسان هما طرفا الإسناد، "ومختصر القول أنّه لا يكون كلام من جزء واحد وأنه لا بدّ من مسند ومسند إليه."[11]

إنّه يمكن التمييز- بناءً على تصوّر الجرجاني للنّظم- بين نظمَين على قدر من الاختلاف؛ نظم نمطي مجرّد تستقيم به التراكيب استقامة نحوية، تتأدّى بها المقاصد والأغراض، وذلك هو

مرجع أيّ كلام، "ومن ثمّة كانت إشارة الجرجاني إلى أنّه لا يُتصوّر فيه نقص أو زيادة،"[12] أمّا النّظم الثاني فهو نظم فنّي، تسمو فيه الدلالة إلى- ما يصفه- بالمزية والفضيلة والشّرف؛ إذْ هو مستوى مهارة وإضافة أسلوبيّة تضاف إلى مستوى الصّحة النحوية، "فالنظوم والأساليب الفنية لا ترقى محلقة في أجواء الفن إلا إذا استقامت حركتُها أوّلاً في أرض النحو."[13]

وإنّ فلسفة النّظم عند الجرجاني تقرّ بحدوث وجوه وفروق تستتبعُها الدلالات والمعاني، وذلك ما يدعو الجرجاني إلى معرفته ودراسة الكلام من أجله، ويكاد يؤكد هذه الفلسفة في معظم نصوصه، ولا يخفى على المتتبع لها وفاؤه لمعاني النحو؛ فالهدف ليس التوقف عند الأشكال والعبارات، وإنما الهدف هو التأمّل والبحث فيما وراءها من مدلولات.

واقترب مفهوم الجرجاني للنحو وعلاقته بالأساليب اللغوية من مفهوم جاكبسون[14] وما جاء به في مفهوم الشعرية للنحو، ويظهر هذا التفريق في جملة أمور منها:

– التفريق بين المستوى المُعجمي والمستوى النحوي للغة، فيقول الجرجاني: "وإذا قدْ عرفتَ هذه الجملة فهَهُنا عبارة مختصرة؛ وهي أن تقول المعنى، ومعنى المعنى؛ تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى تعني أنْ تعقل من اللفظ معنى ثمّ يُفضي بك ذاك إلى معنًى آخر."[15]

– ترجيح النحو على ضروب المجاز: في مجيء (الرأس) فاعلا في الآية قوله تعالى: ﴿ **وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً** ﴾[16] و(الشّيب) تمييزًا، ولو قيل اشتعل شيبُ الرأس لمَا بقيَ أثر لتلك المزية.

– الوظيفة الشِّعرية للنحو: أراد ذلك العلم الذي يكون الأساس في التفريق بين الأساليب اللغوية، من فصل ووصل وتقديم وتأخير وذكر؛ فالدلالة الخاصّة التي يرمي الجرجاني إلى استيضاحها دلالة نحوية، لا يُمسَك بأسرارها إلا بتحليل أعماق التركيب والوقوف على نوعية العلاقات الدلالية والسياقية النحوية، "فالشِّعر عند عبد القاهر موضع الإمكانات النّحوية التي تتولّد عن حركة اللغة وتطوّرها في مستوى التقعيد النحوي والمواضعة الاتفاقية إلى مرحلة الاستعمال الجمالي والاختراق الفردي."[17]

إنّ أسلوبية النّظم لدى عبد القاهر الجرجاني قدْ أعطت العملية الإبداعية أبعادًا مطلقة في جوهرها، فلم يُشر الجرجاني إلى علم المعاني مستقلا عن الأدوات البلاغيّة الأخرى، والبادي واضحا لمتتبّع تاريخ البلاغة العربية يدرك أنّها اتسمت قبل (السكاكي المتوفى 626هـ) بمنهج يرمي إلى عدم الفصل بين عناصرها وفنونها، لِما في ذلك من خدمة للأدب وإمداده بأسباب القوة والجمال، "وعلى العكس كان منهج السكاكي في دراسة البلاغة، فقد أصّل مناهجها فيها على أسُس منطقية حوّلت البلاغة من فنٍّ إلى علم، له قواعده ونظرياته التي إنْ نجحت في تكوين طبقات من البلاغيّين، فقد فشلت في تكوين البُلغاء."[18]

والظاهر أنّ البَونَ شاسع بين ما قصد إليه الجرجاني صاحب فكرة معاني النحو أو النظم وبين ما قصد إليه السكاكي،[19] "فكلّ ما ينضوي تحت هذه العلوم وسيلة من وسائل النظم، والنحو ملاك اللغة وروحها، وكلّ الفنون البلاغية وسائل للوصول للمعنى الأطرف ذي الشكل الأمثل،"[20] فيمكن أن نَعُدّ نظرية النظم أخطر ما كُتب في البلاغة العربية، "وهي بلا شكّ نواة صالحة لإقامة (علم أسلوب Stylistics)عربيّ."[21]

ب/ الجماليّة الغرضية في جملتي الخبر والإنشاء.

إنّ ما جاء في علم المعاني من إشارات وتوجيهات لتراكيب اللغة العربية وأساليبها، يجعلنا نقرّ بأنّ تناول البلاغيين للجملة، وما تؤديه من وظائف تداولية أسلوبية يمثل جدوى الدراسة النحوية ومنتهاها فقُدّم علم المعاني على البيان، "لكونه منه بمنزلة المفرد من المركب، لأنّ رعاية المطابقة لمقتضى الحال وهو مرجع علم المعاني، معتبَرة في علم البيان، مع زيادة شيء آخر وهو إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة."[22] فبات علم المعاني يمثل قمة الدراسات النحوية وفلسفتها.

ويبدو أثر علم المعاني وأهميته في بيان وجوب مطابقة الكلام لحال السامعين، فكانت المناسبة المقاميّة هي التي تحدّد الصيغة المقاليّة، وعلم المعاني محاولة لرصد هذه العلاقة التلازمية ما بين المقامات والمقالات؛ "فالذكيّ يناسبه من الاعتبارات اللطيفة والمعاني الدقيقة

الخفيفة مالا يناسب الغبيّ، (ولكلّ كلمة مع صاحبتها) أيْ مع كل كلمة أخرى مصاحبة لها (مقام) ليس لتلك الكلمة مع ما يشارك تلك المصاحبة في أصل المعنى"[23]

إنّ أهمّ ما جاء في علم المعاني متّصلا بالدلالة الفنية هو ما عُرف لدى البلاغيّين بالخروج عن مقتضى الظاهر، فقد نظر البلاغيُّون إلى أغراض الخبر باعتبار المتكلم ووفقا لمقتضى الظاهر، فوجدوا أنّ له غرضَيْن أصليَيْن؛ فهناك جملة يلقيها المتكلّم بغرض إفادة المخاطَب بما يجهله، أطلق عليها (فائدة الخبر)، وهناك جملة أخرى تُلقى بغرض إفادة المخاطَب بما يجهله من علم بمضمون الخبر أُطلق عليها (لازم الفائدة)، "ونظروا إليها باعتبار المتكلم والمخاطَب... فرأوا أنّ هناك أغراضا خرجت عن ذلك كلّه، فأطلقوا عليها الأغراض المجازية،"[24] في إطار ما يُدعى وظائف الأسلوب والجمل.

فقد حاول د.حسين جمعة محاكاة هذه الجمالية بقوله: "ولعلّ جمالية التساوق البلاغي لأغراض الخبر المجازية، ترتبط بالهدف الذي يرمي إليه المتكلم من وراء الجملة الخبرية، وإخراجها بصورة فنية مغايرة تماما لما عرفناه من قبل، وعلى المتلقي أن يستشّف ذلك من السياق ويَلمحه من قرائن الأحوال بما يمتلكه من ذوق فني... وبهذا تؤسَّس لعلاقة المتلقي بها في ضوء الارتباط النفسي والفكري في وقت واحد،"[25] فتَرتسم بهذه الأغراض الملامحُ الفنية، ومنها نذكر:

● **الأمر بالمضارع:** ويظهر من خلال العدول إلى المضارع بإلغاء الحدود الزمانية بجمالية مثيرة نحو قوله تعالى:﴿**وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ** ﴾[26]

فالسياق البلاغي نَقَل الفعل المضارع الذي يفيد الزمن الحضوري إلى الزمن المطلق لكلِّ امرأة ذات ولد، وإنّه أمرٌ لها بما ينبغي أنْ تفعله في كلّ زمان ومكان وفي هذا مَكْمن الجماليّة، "فهي الفطرة تعمل، وهي الأسرة تُلبّي هذه الفطرة في أصل الكون وفي بنية الإنسان، ومن ثمّ كان نظام الأسرة في الإسلام هو النظام الطبيعي الفطري المنبثق من أصل التكوين الإنساني، بل من أصل تكوين الأشياء كلها في الكون... والأسرة هي الحِضن الطبيعي الذي يتولّى حماية الفراخ الناشئة ورعايتها... وكانت الأسرة المستقرة الهادئة ألزم للنظام الإنساني،"[27] كلّ هذا في دلالة المضارع المجازية.

● **النهي بالنفي:** تنبثق الدلالة من زاوية الرؤية البعيدة مقترنة بالسياق، نحو قوله تعالى: ﴿**لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ**﴾[28] فإنّ امتناع مسّ القرآن الكريم على غير المتطهّرين كان بأسلوب مثير للانفعال النفسي من خلال قصر ملامسة المصحف على المتطهّرين إخبارا، ويقول السيوطي مُعقبا على فحوى الدلالة في هذه الآية في فصل (في معاني الخبر): "إذا قلنا: إنّه وَرد في الآدميين- وهو الصحيح- إنّ معناه: لا يمَسُّه أحد منهم بشرع، فإنْ وُجد المسّ فعلى خلاف حكم الشرع، وهذه الدقيقة هي التي فاتت العلماء، فقالو: عن الخبر قد يكون بمعنى النهي وما وُجد ذلك قط، ولا يصحّ أنْ يوجد؛ فإنّهما يختلفان حقيقة ويتضادّان وصفًا."[29]

●**التمني بالإخبار:** وتفيده الجملة الخبرية في هذا المقام، وكأنّ التمني قريب من الحدوث نحو قوله تعالى:﴿ **وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ**[30]

●**الدعاء بالإخبار:** ترتسم ملامح الجمال المثير بتراكيب موجزة العبارة واسعة الدلالة الإيحائية فعلى الرغم من تداولها اجتماعيا إلا أنّ عبارة مثل (حفظك الله) أو(شفاك الله) بالصيغة الإخبارية تموج بشحنة عاطفية عالية، تقوم على الابتهال والاستعطاف.

أمّا أسلوب الإنشاء فهو قائم على الأساس الذي يطلبه المتكلم من المخاطب، فالكلام الإنشائي في مثل هذه الحال مرتبط بتصوّر المتكلم وبشعوره، فقد يخرج الإنشاء بدوره إلى أغراض مجازية يتلبّسها المعنى المعبّر عنه في هذا الأسلوب، وقد أخرِج الإنشاء غير الطلبي عند القدماء من جملة الإنشاء الطلبي، لأنّه لا يستدعي مطلوبا بعد النطق به كالشرط والقسم، والتعجّب، والمدح والذمّ، والرّجاء وصيغ العقود، وهناك من أخرجه من بحث الإنشاء كلّه.[31] و"الخبر قد يقع موقع الإنشاء، إمّا للتفاؤل أو لإظهار الحرص في وقوعه... والدعاء بصيغة الماضي من البليغ يحتمل الوجهين."[32]

ومن الأغراض الفنية التي ينزاح إليها الإنشاء يُذكر:

● **الدعاء بالأمر**: نحو قوله تعالى: ﴿**رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ**﴾[33]

يقول سيِّدُ قطب في قصّة سليمان عليه السلام وفي فحوى تفسيره للآية الآنفة الذكر: "أدرك سليمانُ هذا، فتبسّم ضاحكا من قولها، وسرعان ما هزّتهُ هذه المشاهدة، وردّت قلبه إلى ربّه الذي أنعم عليه بنعمة المعرفة الخارقة، وفتح بينه وبين تلك العوالم المحجوبة المعزولة من خلقه، واتّجه إلى ربّه في إنابة يتوسَّل إليه... (ربّي) بهذا النداء القريب المتّصل.. (أوزعني) اجمعني كُلّي، اجمع جوارحي ومشاعري."[34]

وهذا التعبير يشي بنعمة الله التي مسّت قلب سليمان عليه السلام، وفي تلك اللحظة يصور نوع تأثره وقوة توجّهه وارتعاشة، وهو يَستشعر فضل الله الجزيل، ويتمثل يد الله عليه وعلى والديه، ويحسّ مسّ النعمة والرحمة في ارتياع وابتهال.[35]

- الالتماس بالنهي: نحو قول الفرزدق: [36]

فَلا تُعْجِلاني صاحِبَيَّ فرُبّما سَبَقتُ بوِرْد الماءِ غادية كُدْرَا.

- الإخبار بالاستفهام: نحو قوله تعالى:﴿**أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى**﴾[37]

إنّ المعنى الإسنادي المتضمّن في الآية يتعزّز "أمام هذه الحقيقة التي تفرض نفسها فرضًا على الحسّ البشري، يجيء الإيقاع الشامل لجملة من الحقائق التي تُعالجها الصورة (أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟) ... وهكذا تنتهي الصورة بهذا الإيقاع الحاسم الجازم، القوي العميق، الذي يملأ الحسّ ويَفيض بحقيقة الوجود الإنساني، وما وراءها من تدبير وتقدير."[38]

- الترجّي بالتمنّي: ومنه نحو قول الشابيّ: [39]

ليتَني كُنتُ كالسُّيول إذا سَالتْ تَهدُّ القبورَ رَمْسا بِرَمْسِ

ليتني كُنتُ كالرِّياح فَأطوِي كُلَّ ما يَخْنِقُ الزّهورَ بنَحْسِي

فالأبيات تعكس خاطرَ الشاعر مكسورا، بعدما خاب رجاؤه في شعبه الخامل الخامد المستكين.

2/ من التجليّات الفنيّة لنحوية التراكيب.

تُعدّ الإبداعية المجازيّة محصلة التعدّد الدلالي، وبوصفها خاصيّة جوهرية من خصائص عمل اللغات، باعتبارها أنساقا سميائية مَرنة وفعالة، ولقد أكّدت الدراسات التي اهتمت بمعالجة التراكيب الدلالية المولدة أنّ المجاز ليس واقعًا مكوّنًا للغة فحسب، وإنّما يُسهم في بنية الإنسان التصوّرية بوجه عام.

فعملية الاستعارة تمسّ القواعد التي تربط المكوّنات التركيبية للجملة بالمدخل المعجمي، غالبا ما تكون قواعد مباشرة؛ " ذلك أنّ المبدع لا يقنع بالعلاقات الدلالية بين المفردات في التركيب اللغوي للغة ما، بل ينفذ إلى سمات خاصّة، يراها هو متأثرا بموقفه الانفعالي في الألفاظ وما بينها من ترابط، فيَعقِد الوشائج بينها، ويصبّها في قالب تعبيري، فيَحدث هذا التغاير في مساحات الدلالة في الألفاظ."[40]

فأضحى التحوُّل الدلالي أحدَ الروافد الهامّة في إثراء اللغات، وسدّ حاجات التغيّرات الطارئة على المؤسَّسة اللغوية على امتداد الزمن، وتُرى العلاقة الوطيدة ما بين المعنى في مستواه الإفرادي (المعجمي) والمعنى المتحوّلة إليه الوحدة المعجمية ضمن عملية الإسناد، فكما تؤثر هذه الوحدة المعجمية في إعارة معناها الأوليّ الأساس، تفيد في الوقت نفسه هذه الدلالة التي شُحنت بها ضمن المعنى الإسنادي الذي حققته، وبه تَحقق مدلولها الجديد.

أ/ تداوليّة التّحويل الدلالي.

*** الإسناد المجازيّ بالاستعارة:**

تُعدُّ الاستعارة- في عُرف البلاغيين- من المجاز اللغوي؛ فهي تشبيه حذف أحد طرفيه فالعلاقة بين المستعارمنه والمستعار له في أسلوب الاستعارة المشابهة على الإطلاق، ويفصّل عبد القاهر الجرجاني الحديث عن الاستعارة، وما تعتليه من منازل الشرف والحُسن.[41]

وتأخذ الاستعارة -حسب الجرجاني[42]- في التنوع، فيقسّمها أقساما على أساس اللفظ المستعار ويؤكد أنّ كل لفظة دخلتها استعارة مفيدة، فهي لا تخلو من أن تكون اسما أو فعلا.

إنّ هذا المجال الدلالي الرّحب الذي تنحرف إليه الكلمة في الاستعارة، يتقاطع في كثير من الأحايين مع العناصر الإسنادية النحوية، فتتولد جمالية الصورة التعبيرية، بحيث يسند إلى الفاعل ما ليس له في الحقيقة، أو يسند الفعل إلى غير فاعله في الحقيقة، أو أنْ يخبر عن المبتدأ بما لا يوصل بمعناه، أو العكس، والمهمّ في أسلوب الاستعارة أنّ المشبه (المستعار له) هو المهمّ في عملية التواصل، وهو الموضوع المراد توضيحه، فهو قرينة أساسية في تحليل معنى الاستعارة، وقياس البعد الفني فيه.

وعندما نتأمّل قوله تعالى: ﴿ **فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ** ﴾[43]، نجد هذا الخطاب موجّها إلى المشركين بُعيْد انهزامهم في غزوة بدر الكبرى، وما أصابهم من ذلّ وخزي، بعد أنْ أحلت غنائمهم وأسِر فرسانهم، وكان كلّ هذا عذابا لهم في الدنيا، وإنّ التركيب الإسنادي (ذوقوا العذاب) متضمّن إسنادا مجازيا، فليس للعذاب ذوق في وضع اللغة، وإنّما استعير لفظ (ذوقوا) المسند، للدلالة على أنّ ما تجرّعه المشركون من ألم واستكراه وذلّ، لا يقلّ أثرا من تجرّع مادّة تنفر منها النفوس، وتقشعرّ منها الأبدان، ولعلنا نُسجِّل تصويرا نفسيا لحال المشركين من خلال تحوّل دلالة الفعل (ذاق) في الآية الكريمة.

*** الإسناد المجازيّ بالتشبيه البليغ:**

ولمّا كان التشبيه البليغ ذلك النوع من التشبيه الذي لم يبق من أركانه سوى الطرفين (المشبّه، والمشبّه به)، صار وسيلة من وسائل نقل الدلالة الإفرادية (المداخل المعجمية) من حقل دلالي إلى آخر؛ وذلك "لأنّ الوصف يحمل جرثومة الحديث بدلالته على موصوف بالحدث، و هذا الحدث هو الصالح أن يكون مسندا... لأنّ المُسمّى لايشتمل على الحدث، ولا يصلح أن يكون مسندا... ومع ذلك نرى من الممكن، إمّا عن طريق النقل، وإمّا عن طريق التشبيه البليغ أنّ الاسم ينتقل إلى الوصفية."[44]

إنّ التطابق التامّ بين طرفي التشبيه البليغ (المشبّه به، والمشبّه)هو ما يتميز به من بقية أنواع التشبيه الأخرى، مثلما يزعم البلاغيّون، وذلك من خلال حذف الأداة ووجه الشبه، وهي قرائن دالة على المشابهة والمماثلة بين العنصرين؛ ففي قولنا: زيد أسد، فإنّ إسناد (أسد) إلى (زيد) بالإخبار، من قبيل نقل دلالة (الأسد) من مستوى المعنى المعجمي (حيوان مفترس) إلى

الدلالة الإسنادية الجديدة في التركيب المذكور آنفا، وما من شكّ في أنّ مرجع هذا الإسناد المجازي كان المبالغة في تشبيه زيد بالأسد في القوّة والجرأة والانطلاق.

*** الإسناد المجازيّ بالمجاز المرسل:**

المجاز المرسل هو استعمال كلمة في غير معناها التي وضعت له لعلاقة غير المشابهة، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي، إذ هو عُدول وتحوُّل للكلمة (الوحدة المعجمية)، لكن ليس هذا التحول عن طريق المشابهة كما في الاستعارة، فالعلاقة في المجاز المرسل تختلف وتتعدّد، ولعلّ تسميته بالمرسل من قبيل هذه العلاقة المرسلة.[45]

وإنّ نقل الدلالة أو تحويلها يجري عادة بين الكلمات التي تربط بينها وبين معناها المعجمي علاقة دلالية معيّنة، "ويشمل هذا اللون من التغيّر الدلالي نوعين، انتقال مجال الدلالة لعلاقة المشابهة بين المدلولين، أي بسبب الاستعارة، وانتقال مجال الدلالة لعلاقة غير المشابهة بين المدلولين، وهو المجاز المرسل."[46] أمّا درجات هذا التحوّل في الشعر فهي مرتفعة؛ "إذ يلجأ الشاعر- في الغالب- إلى التعبير بالصورة التي تجمع عناصر مختلفة، وتؤلف بينها، وتقدّم تشكيلا جديدا ورؤية متميزة."[47]

ومن أمثلة المجاز المرسل في القرآن الكريم قوله تعالى:﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾[48]

ومعنى الآية أنّ الله تعالى ما كان لِيُعذب هؤلاء المشركين، وفيهم مؤمنون يستغفرون الله؛[49] فلفظة (هم) الواقعة مسندا إليه (مبتدأ)، العائد معناه على المشركين من المجاز المرسل ذي العلاقة الكلية، بمعنى أنّ امتناع العذاب عن المشركين لوجود من يستغفر الله فيهم، وهم قلة من المؤمنين، وإننا نسجّل في هذا الإسناد المجازي عدّة قيم دلالية نذكر منها:

- أن الخطاب القرآني بالاستغفار الذي يشمل المشركين، فيه دعوة إلى التوبة والإنابة إلى الله.

*** الإسناد بالكناية:**

إنّ الدلالة في أسلوب الكناية- على تصوّر البلاغيّين- تكون على مستويين متمايزين ومتلازمين؛ أوّلهما مستوى الدلالة الوضعية بمعناها الحرفي، أمّا المستوى الثاني فهو الدلالة على المعنى الغرضي المراد، التي ترتدّ إلى دلالة المعنى الحرفي في المستوى الأول، [50]

إنّ أهمّ ما تميزت به الكناية- في تقدير البلاغيين- أنّها لا تنافي إرادة الحقيقة بلفظها فلا يمتنع بقولنا: (هو كثير الرماد)، أننا نريد المعنى من دون تأوُّل، على خلاف المجاز الذي لا طريق فيه إلى المعنى المقصود من غير تأول، وتأتي الكناية على أكثر من لفظ- غالبا- فإذا تفحّصنا أسلوبها، ألفينا فيه مزية أضفتها على المعنى المراد، وهي إيراد الشاهد أو الدليل الذي يُقوّي المعنى، ويَدعم إحساس المتلقي بالمحتوى الإبلاغي فضلا عن المزية اللغوية التي تُعدّ من جماليات اللغة وأناقتها.

وتتضِّح جمالية المعنى الإسنادي الكنائي أكثر عندما نُحلل هذه النماذج القرآنية وعند الوقوف على تراكيبها الإسنادية، ومن ثمّ معانيها الإسنادية المكنّاة عنها.

ففي قوله تعالى:﴿ **فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ**﴾[51] قد جاء الخوف مجسّدا بكل هوله وفزعه؛ وهؤلاء ينظرون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، كأنه هو الذي أخرجهم إلى هذا الموقف، هذه النظرة كانت بأعين متفتحة لأقصى اتساعها. فالأعين لا تدور كلها، إنّما التي تدور هي العيون في الأحداق، فهذا الانتقال في الإسناد جعل العين كلها تدور، وهذا موقف لا يكون إلا عند الهلع الشديد.

ب/ تداوليّة التّخيُّر النّحويّ.

عُدَّ حسن التخير النحوي من معايير الصورة الفنية في نظر البلاغيين، "فالصورة الفنية هي تلك التي أُختيرت عناصرها الإفرادية، واختير نسقها الخاص التي تترتّب فيه تلك، ويحتلّ كلٌّ منها موضعه الخاص به، بحيث يكون لها بهذا الاختيار من القيمة مالا يتوفر في صورة أو بدائل أخرى (مفترضة) تشترك معها في أصل معناها، فاللغة الفنية في ضوء هذا المعيار هي لغة خاصة أو لغة فوق اللغة."[52]

والدراسة- في هذا المقام- تركّز على ما يُضيفه حُسْن التخيّر النحوي إلى الجملة البسيطة، وما يلحق رُكنيها من حذف أو إعادة الترتيب، في ضوء- ما يُسمّيه د.تمام حسان- الأساليب العُدولية.[53] "فطريقة العرب تدبيج الكلام وتلوينه، ومجيء الفعلية تارةً والاسمية أخرى من غير تكلف لما ذكروه، ولقد رأينا الفعلية تصدر من الأقوياء الخُلّص، اعتمادا على أنّ المقصود الحاصل بدون التأكيد،"[54] ولتمثل هذا الفرق نُحلل نص الآية الآنفة الذكر لقوله تعالى:﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾[55].

إنّ التركيب الإسنادي (ليُعذبَهم) يشغل وظيفة المسند في التركيب الإسنادي العام كما إنّ العنصر الإسنادي (مُعذّبهم) واقع مسندا من الآية نفسها، وفي مجيء هذا المعنى الإسنادي مكرّرا في الآية خَصيصة دلالية دقيقة، مُفادها أنّ مجيء(المسند) الأوّل جملة فعلية (ليُعذبَهم)، يفيد معنى الحدوث المؤقت للفعل، وهذا ما توضّحه العبارة القَيد (وأنت فيهم) بمعنى أنّ وجود النبي صلى الله عليه وسلم بين المشركين منع عنهم العذاب، ويزداد الأمر وضوحا عند مقارنة جزأي الآية؛ ففي صيغة (مُعذِّبهم)، التي شغلت وظيفة المسند دلالة على الحدوث الدائم والاستمرارية، وفي فحوى هذه الدلالة يقول ابن عبّاس: "كان فيهما أمانان نبيّ الله صلى الله عليه وسلم والاستغفار؛ أمّا النبي فقد مضى، وأمّا الاستغفار فهو باق إلى يوم القيامة،"[56] فالفعل يدلّ على التجدّد والحدوث، والاسم على الاستمرار والثبوت، ولا يحسُن وضع أحدهما موضعَ الآخر.[57]

*** التقديم وأثره :**

التقديم هو أحد الأساليب العدولية، التي من خلالها يُعدَل عن القاعدة والنظام اللغوي القارّ، لأغراض خاصة يبرّر بها المتكلم -غالبا- هذا العُدول، وقد تحدّث النحاة عن الرتبة في تأصيلهم للنماذج الكلامية المَعدول بها عن هذا الأصل، فتحدّثوا عن الرتبة المحفوظة، كرتبة الموصول وصلته ورتبة المضاف والمضاف إليه، وعن الرتبة غير المحفوظة التي لا يجد المتكلم بُدًّا من التصرف فيها.

والرتبة غير المحفوظة تشمل التقديم والتأخير بين المبتدأ والخبر، وبين الفاعل والمفعول، وما إلى ذلك، فكان- بحق- هذه الرتبة ما اختص فيه البلاغيّون[58]، فهذا "هو الذي لا يُحتّمه نظام اللغة، بل يُجيز للمتكلم حريّة الخروج عليه... أي أن الرتبة في هذا اللون من مجالات التخيُر النحوي الموجِب للمزيّة."[59]

والبادي جليّا من التقسيم الجرجانيّ للتقديم هذا التقسيم المُزدَوج هو سعيُه إلى بيان المَزيّة الفنية التي لا تكون إلاّ في التقديم الذي على نيّة التأخير، لارتباط مزيّة التقديم- في نظره- بالتّخيّر الذي تبرز قيمتَه الفنية المقارنة بين أسلوب التقديم وأسلوب آخر مفترض يتأخّر فيه المتقدم.

إنّ للتقديم مزايا فنية وبلاغية متعددة تلقي بظلالها على المعنى الإسنادي، من حيث ملاءمةُ هذا التقديم للمقام المصاحب للحدث الكلامي، لذلك بحث البلاغيّون في تقريب تلك الأغراض المقامية، فيذكر الأستاذ عبد الفاتح لاشين- ملخّصا- ما بُحث من الأغراض المُخوّلة لتقدم المسند(الخبر) على المسند إليه المبتدأ في ثلاثة أغراض عامّة:[60]

. **قصر المسند إليه على المسند.**

. **التنبيه من أول الأمر على أنه خبرٌ، لا نعت.**

فلما كانت النكرة أشدَّ حاجة إلى النعت منها إلى الخبر قُدّم الخبر(الجارّ والمجرور)، لدفع توُهّم ذلك.

. **التشويق إلى ذكر المسند إليه:** كأن يكون (المسند) يحمل ما يشدّ انتباه المتلقي ويشوّقه إلى معرفة المسند إليه.

*** الحذف وأثره.**

لم يهتمَّ البلاغيّون بمظاهر الحذف- على إطلاقها- في الأساليب الفنية، فإنْ كان النحاة يتكلمون على الحذف بلونَيه الواجب والجائز[61]، فإنّ صور الحذف التي توقف عندها البلاغيّون لا تتعدّى الحذف الجائز، أي حذف ما يجوز ذكره،[62] ولعلّ ما يقصده الجرجاني

باطّراد حذف المسند إليه (المبتدأ) هو الحذف عند القطع والاستئناف، التي عدّدها: "فهو لون من التقاليد الفنية... فالاطّرادُ إذًا هو اطّراد في تخيّر الظاهرة الفنية."[63]

ولهذا النوع من التخيّر مزايا تتصل -أساسا- بالمقام وشخصيتَي المتكلم والسامع (عناصر الإتصال اللّغوي)، فحذف المسند إليه يتوقف على أمرين،[64] أحدهما القرينة ومرجعه نحويّ، والثّاني هو المرجّح للحذف على الذكر ومردّه بلاغيٌّ، ومن أهمّ دواعي هذا المرجِّح البلاغيّ تلك المقتضيات التي ذكرها البلاغيّون في مصنفاتهم، ضمن علم المعاني، فمن دواعي حذف المسند إليه (المبتدأ):

. الاحتراز عن العبث:

لأنّ ما دلّت عليه القرينة وظهر مدلوله عند المتلقّي، يُعدُّ ذكره عبثًا من حيث إنّه يقّلل من قيمة العبارة فنيًّا وبلاغيًّا.

. ضيق المقام عن إطالة الكلام:

وتظهر قيمة حذف المسند إليه (المبتدأ) عند الاحتراز من فوات فرصة بثّ المحتوى الإسنادي متمثلاً في التعجيل بإيراد محتوى الخبر.

. احتقاره (المسند إليه):

فمن الأخبار المسندة إلى المبتدأ المحذوف، ما يجعل سبب هذا الحذف هو الاحتقار.

. مَدحُه والثناء عليه: فعادةُ العرب إذا ما سلكت سبيل المدح أن تُعنى بإظهار صفات الممدوح والإخبار عنه بها، ويحذف الممدوح بغية تركيز انتباه السامع (المتلقّي) على ما يتّصف به بدلاً من توزيع انتباهه بين الشخص وما يعود إليه من مدح في الكلام.

إنّ ظاهرة الحذف في الخطاب القرآني لم تتوقف عند حدود حذف المسند إليه (المبتدأ) بل طالت حذف المسند (الخبر) في مظاهر عديدة، وممّا يُسجَّل في أسلوب القرآن

الكريم تلك التراكيب المحذوفة المسند(الخبر)، وتبقى قرينة السياق أقوى القرائن في عمليات الحذف تلك جميعا.

ففي قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوه﴾[65]، وقوله أيضًا:﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾[66]، وقوله أيضًا:﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[67]

إنّ الخبر المحذوف في الآيات هو بيان عاقبة المشركين، وما لحق بهم من مذلة وهزيمة وهوان، فلمّا كان هذا الجزاء حاصلاً بالتأكيد وواقعًا في الدّنيا بهم حُذف، ما دام في السياق ما هو أدلُّ على ذلك، وما من شكّ في أنّ جمالية المعنى تأخذ تشكيلها من هذا الحذف الفنيّ الراقي، "فهذه نهاية المطاف. وهذا هو العذاب الذي لا يقاس إليه ما ذقتم من الرعب والهزيمة ومن الضرب فوق الأعناق ومن ضرب كلّ بنان."[68]

أمّا **دواعي حذف المسند إليه** (الفاعل) فعديدة، ويمكن تصنيفها إلى أغراض لفظية وأغراض معنوية.

. **الأغراض اللفظية**:

تكون بالمتكلم حاجة إلى حذف لفظ في كلامه، وقد يكون هذا المحذوف العنصر الإسنادي (الفاعل) بهدف الإيجاز أو حتى تضبط الزّنات الإيقاعية[69] في المستوى الصوتي وما لذلك من أثر في الصورة الإبلاغية للمحتوى الإسنادي، ومن بين تلك السّمات الإيقاعية في حذف المسند إليه (الفاعل) يُذكر:

- إقامة الوزن.

- توافق القوافي.

- تقارب الفواصل.

- الإيجاز.

. **الأغراض المعنوية:**

لحذف الفاعل أغراض معنوية عديدة، وما يتّصل منها بهامش الفنية التعبيرية يُذكر:

- الإبهام بجهل الفاعل. ويكون حذفه على سبيل الامتناع عن ذكره لأغراض خاصة بالمتكلمين.

- التحقير والتقليل من شأنه؛ كأن يُضرِبَ المتكلم عن ذكر الفاعل لسوء فعله.

- مراعاة غرض السامع، إنْ كان مشدودا بالمفعول من دون الفاعل .

الخاتمة:

باتت الجملة في الدرس اللغوي على قدر كبير من العناية والاهتمام، وتجاوز بها هذا الدرسُ حدود البحث في هيئاتها التركيبيّة إلى ما وراء هذه الهيأة من دلالات على المعنى، فدراسة النّحو على أساس طرائق تأديته المعانيَ تُعطي الموضوع طراوة وطرافة، وتؤشِّر لهذه الفنيّة التي تزيد المعنى إجلالا وتبجيلا.

ومنه أضحى النّحو مشغلة الفنانين والشّعراء، كونُه مرجعَ هذا الإبداع، وحتّى يُستجلى سرّ هذا الإبداع لامناصَ من فقه أدواته النّحويّة، فصار لزاما على المشتغلين بتعليمية اللغة العربية استثمارُ ما توصل إليه هذا الدرس ضمن علم التراكيب وفنيّات تعليميّة التراكيب النحوية.

ويمكن تركيز أهم ما انتهت إليه الدراسة في النقاط التالية:

*إنّ المكوّن التداولي مُعين هامّ في تحليل المعاني في التركيب الإسنادية، من حيث استجلاؤها في مناحيها الاجتماعية والتاريخية، فيُمكن الإشارة في هذا السّياق إلى المعاني الكنائية، وكذا الأمثال المتوارثة؛ فالمكوِّن التداولي هو أحد مفاتيح التحليل الدلالي للجملة العربية.

* إنّ في جهود البلاغيّين اللغوية ما يُمكن اعتماده قاعدة أساسية في البحث عن مظانّ التداولية في اللغة العربية (الأساليب، فكرة المقام، أفعال الكلام ، وغيره)

* إنه كثيرًا ما يُعاب من بعض المُحدَثين على النحو العربي اتّجاهه الصوري وابتعاده عن المستوى الوَظَفي في تحليل الجملة العربية، بَيْدَ أنّ في هذا الحكم ما يدعو إلى مراجعة ذلك في أناةٍ وهدوء، وإنّها إشارات ذكيّة إلى المعنى بأدوات وَظَفيّة ذلك الذي تدارسه النحاة والبلاغيّون في قضايا الحذف، والتّضمين، والتقديم، وبما يتّصل بالاقتصاد اللغوي؛ وما اشتغالهم بالمسند والمسند إليه وما يلحق بهما من ظواهر عُدولية في الكلام، إلاّ دليل آخر على نظرتهم الوَظَفيّة للعناصر التركيبية، ويَظهر هذا حتى في اصطلاحاتهم (المبتدأ، الخبر، الفعل، الفاعل).

*إن تفعيل وظيفة المسند والمسند إليه الشعرية في تحليل الجملة العربية عنصر هام في تحقيق الأهداف التعليمية المرومة، إذ يمكن أن يُستثمر محور الاستبدال الدلالي فيها بتنويع النماذج التركيبية استعمالا وتوظيفا، بما من شأنه تنمية المخيال الشعري لدى المتعلم، وتربية ذوقه اللغوي والأدبي.

*إنّ استحضار ملابسات الحدث اللغوي في طبقاتها المقامية الفنية والجمالية يحقق إثارة المتعلم بالظاهرة التركيبية محل المقاربة، فيهتدي إلى النمط المثالي لأصل التركيب باستثمار المجهود الأدنى لتحقيق المردود الأقصى، ويمكن تمثيل ذلك بالشكل التالي:

الأثر الفني ← التحليل الأسلوبي ← الظاهرة التركيبية ← استيعاب القاعدة

(النص) (المقارنة) (درجة الدول) (النمط المثالي)

*إنه من الضروري اعتماد العناصر الأصيلة الأساسية في بنية التراكيب الجملية "العناصر الإسنادية" (المسند / المسند إليه/ الإسناد) وتحديد وظائفها وظيفة ما سواها من متعلقات (قيد الظرفية/ قيد الحالية/ قيد المخالفة ...) حتى يتفادى التشعب في الاصطلاحات النحوية وكذا اجتناب المضامين ذات الطابع التجريدي، مثل الإعراب التقديري، والأمثلة المجتزأة والمصنوعة.

* إنّ التركيز على إدماج ما استوعبه المتعلم في وضعيات إدماجية معين هام لتحقيق الكفاءة النحوية، فيها يقارب النماذج النصية المدروسة.

الهوامش:

*- التداولية: يقابلها المصطلح الأجنبيPragmatics. وتؤكّد دراساتٌ في المجال امتدادها للمذهب الذرائعي في الفلسفة النفعية Pragmatisme .

1- مبادئ في اللسانيات، الطبعة الثانية. دار القصبة للنشر، الجزائر،2006، ص176.

*- هو: ميخائيل باختين، مفكّر وناقد روسي، عُرف بنظرياته في مجال الأدب وأسلوبية الرواية، من مؤلفاته: (الماركسية وفلسفة اللغة). وله جهود في بلورة مفاهيم المنهج التداولي الحديث.

2- ينظر: مجلة كلية الآداب بتطوان، العدد9، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة 1999. د.محمد الحيرش، "تداوليات الخطاب عند باختين"، ص 162و163.

*- يرى عديد من الدارسين صلاحية مصطلح "المقام" معادلا لمصطلح "situation". بدلا من مصطلح "السياق"، المعادل لمصطلح "context".

3- صالح بلعيد، التراكيب النحوية وسياقاتها المختلفة، ص70.

4- اللغة العربية معناها ومبناها، ط3. عالم الكتب، القاهرة، مصر، 1998. ، ص336.

5- رجاء عيد، فلسفة البلاغة، د/ط. منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، د/ت، ص17.

6- عبد الفتاح لاشين، التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني، د/ط. دار الجيل للطباعة والنشر، القاهرة مصر 1980، ص227.

7- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: محمد رشيد رضا، ط 1. دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1994.، ص70.

8- صالح بلعيد، التراكيب النحوية وسياقاتها المختلفة عند الإمام عبد القاهر الجرجاني، د/ط. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1994، ص43.

9- تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص188.

10- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص15.

11- المرجع نفسه، ص18.

12- حسن طبل، المعنى في البلاغة العربية، د/ط. دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 1998، ص11.

13- المرجع نفسه، ص11.

14- مي عبد القادر، "اللغة الشعرية بين الجرجاني وجاكبسون" http://www.ofouq.com/today/modules.php

15- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص132.

16- مريم، من الآية 04.

17- إبراهيم رماني، الغموض في الشعر العربي الحديث، د/ط. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991، ص191.

18- عبد العزيز عتيق، علم المعاني، د/ط. دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1974، ص25.

19- ينظر: منير سلطان، بلاغة الكلمة والجملة والجمل د/ط. منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، 1998.، ص12.

20- منير سلطان، بلاغة الكلمة والجملة والجمل، ص15.

21- محمود أحمد نحلة، في البلاغة العربية "علم المعاني"، ط1. دار العلوم العربية، بيروت، لبنان، 1990، ص38.

22- سعد الدين التفتازاني، مختصر المعاني، ط1. دار الفكر، رقم الصف الالكتروني، كمبيوست مؤسسة آل البيت، ص28. وينظر: الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، ط3. دار الجيل، بيروت، لبنان ص79و99.

23- المرجع السابق، ص23.

24- حسين جمعة، جمالية الخبر والإنشاء، د/ط. منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق، سوريا، 2005، ص52.

25- المرجع نفسه، ص46.

26- البقرة، من الآية 233.

27- سيّد قطب، في ظلال القرآن، ط35. دار الشروق، القاهرة، مصر، 2005، ج2، ص235.

28- الواقعة، من الآية 79.

29- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تح: بقلم محمد بن عمر بن سالم بازمول. ط1 ،دار الهجرة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ص304 و ص305.

30- المائدة، من الآية 84.

31- ينظر: حسين جمعة، جمالية الخبر والإنشاء، ص102.

32- الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص92 و93.

33- النمل، من الآية 19.

34- سيّد قطب، في ظلال القرآن، ج19، ص2636 و 2637.

35- ينظر: المرجع نفسه، ج19، ص2637.

36- ديوان الفرزدق، د/ط. الدار للطباعة والنشر بيروت، لبنان، 1984، ج1، ص189. والبيت من بحر الطويل، (غادية كُدْرًا: أي القطا التي تغدو إلى الماء).

37- القيامة، من الآية 40.

38- سيّد قطب، في ظلال القرآن، ج29، ص3775.

39 - أبو القاسم الشابيّ، ديوان "أغاني الحياة"، ط1. دار المعارف للطباعة والنشر، تونس، 1987، ص116.

40- فايز الداية، علم الدلالة العربي، دار الفكر، دمشق، سوريا،ط2، 1996. ص392 و393.

41- ينظر: عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، تحقيق: محمد رشيد رضا، ط1. دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1994.، ص33.

42- ينظر: المرجع نفسه، ص34.

43- الأنفال، من الآية 35.

44- تمام حسان، البيان في روائع القرآن، ط1. عالم الكتب، القاهرة، مصر، 1993، ص42.

45- ينظر: عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص365 .

46- حلمي خليل، الكلمة، د/ط. دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1995، ص117.

47- محمد حماسة عبد اللطيف، ظواهر نحوية في الشعر الحر، ط1. مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، د/ت.، ص12.

48- الأنفال، من الآية 33.

49- ينظر: محمد على الصابوني، صفوة التفاسير، ط5. قصر الكتاب، الجزائر، 1990، ج1، ص503.

50- ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص60.

51- الأحزاب، من الآية 19.

52- حسن طبل، المعنى في البلاغة العربية، ص156.

53- ينظر: تمام حسان، البيان في روائع القرآن، ص 10و 345و 393.

54- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط4. دار المعرفة، بيروت، لبنان، د/ت، ج4، ص66.

55- الأنفال، من الآية 33.

56- ينظر: محمد على الصابوني، صفوة التفاسير، ج1، ص503.

57- ينظر: الزركشي، البرهان في علم القرآن، ج4، ص66.

58- ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص85. ويذهب الجرجاني إلى أن هناك نوعين من التقديم؛ تقديم على نيَّة التأخير وتقديم لاعلى نيَّة التأخير. فأمّا القسم الأول فيكون بانتقال المُقدَّم لفظا وحُكما كتقديم الخبر على المبتدأ أو المفعول على الفاعل. وأمّا لثاني فهو كأن ينقل العنصر التركيبي من حكم إلى آخر ويُجعل بابا غيرَ بابه ومثل ذلك أن يُعمد إلى اسمين يَحتمل كل منهما أن يكون مُسندا أو مُسندا إليه في تركيب ما، فيتقدّم أحدهما تارةً ويتأخّر تارةً أُخرى.

59- حسن طبل، المعنى في البلاغة العربية، ص176.

60- ينظر: المرجع السابق، ص 85 و86 .

61- ينظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص21.

62- ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص16.

63- حسن طبل، المعنى في البلاغة العربية، ص184.

64- ينظر: عبد العزيز عتيق، علم المعاني، ص 133.

65- الأنفال، من الآية 14.

66- الأنفال، من الآية 18.

67- الأنفال، من الآية 51.

68- سيّد قطب، في ظلال القرآن، ج 09، ص1486.

69- ينظر: تمام حسان، البيان في روائع القرآن، ص257.